وَصْفُ القُصُورِ فِي النَّثْرِ الأَدَبِيِّ بِالأَنْدَلُسِ ؛ عَصْرَ الطَّوَائِفِ وَالمُرَابِطِينَ.... دِرَاسَة تَحْلِيلِيَّة

اعداد

أ.غادة حسنين أحمد موسى نافع

باحثة دكتوراة تخصص لغة عربية

أ.د. مروة شحاته الشقرفى

أستاذ الأدب الاندلسى بكلية الآداب

جامعة دمنهور

دورية الانسانيات، كلية الآداب، جامعة دمنهور

العدد الستون - يناير - الجزء الأول - لسنة 2023

وَصْفُ القُصُورِ فِي النَّثْرِ الأَدَبِيِّ بِالأَنْدَلُسِ ؛ عَصْرَ الطَّوَائِفِ وَالمُرَابِطِينَ.... دِرَاسَة تَحْلِيلِيَّة

أ.غادة حسنين أحمد موسى نافع

أ.د. مروة شحاته الشقرفى

المقدمة

لقد حَفَلَ النَّثْرُ الأَدَبِيُّ إِبَّانَ عَصْرَي : ملوك الطوائف والمرابطين بتصوير مظاهر الحضارة الأندلسيَّة في القصور ، وعَكَسَ صورة مُتَأَلِّقَة لا تَقِلُّ نَصَاعَةً عَنِ الشِّعْرِ ، وَلَيس ذَلِكَ أَمْرًا غَرِيبًا ؛ فقد كَانَ الشِّعْرُ فِي الجَاهِلِيَّة ديوان العرب الذي سَجَّلَ مَفَاخِرَهُم ومَآثِرَهُمْ ، ثُمَّ حينما تَعَقَّدَتِ الحَيَاةُ الفِكْرِيَّة فِي القَرْنِ الثَّاني الهِجْرِيّ ، وَتَطَوَّر النثرُ الأَدَبِيُّ فِي المَشْرِقِ العَرَبِيِّ ، شَارَك الشِّعْرَ فِي اسْتِيعَاب أَفْكَار العَصْر والتَّعْبِير عَنْ قَضَايَاهُ ، وَتَحَوُّلاتِهِ العَقْلِيَّة والحَضَارِيَّة ، بِفِعْلِ النَّقْلِ وَالتَّرْجَمَةِ وتَعَرُّبِ الشُّعُوبِ التِي دَخَلَتِ الإِسْلامَ ، بِكُلِّ مَا تَقِفُوهُ مِنْ أَلْوَانِ المَعْرِفَة وَالعَادَات وَالتَّقَالِيد وطَرَائِق المَعِيشَة .

وقد ازدهرت القصور خلال عَصْرَي : الطوائف والمرابطين ؛ لِمَا حَصَدَتْهُ الأَنْدَلُسُ فِيهَا مِنْ ثِمَارِ النَّهْضَة الحَضَارِيَّة المَرْجُوَّة ، التِي شَهِدَتْهَا مَعَ بِدَايَة الفَتْحِ الإِسْلامِيّ مُرُورًا بِعَصْرِ الوُلاة ؛ حَتَّى بَلَغَتْ شَأْوًا مُتَقَدِّمًا فِي عَهْدِ الدولة الأُمَوِيَّة ، وبخاصة في عهد عبد الرحمن الثالث (ت350هـ) وابنه الحَكَم المُسْتَنْصِر (ت366هـ) ، وامتدت إلى عهد المنصور بن أبي عامر (ت392هـ) .

أسباب اختيار الموضوع :

- ❖عدم وجود دراسة علميَّة تُعَالِج القصور في الأندلس من خلال نماذج النثر الأدبيّ ، على الرغم من ثرائه بتجليات الحضارة المادية والمعنوية آنذاك .
- ❖التعرف إلى طرائق كُتَّاب الأندلس وأساليبهم اللغوية في تَنَاوُل القصور في كتاباتهم النثرية .
- ❖قِلَّة حَظِّ النَّثْرِ الأدبيّ بالأندلس من الدراسات النقديَّة التي تُعَالِجُ قضاياه وخصائصه الفنيَّة بالقياس إلى الشِّعْرِ ، على الرغم من كثرة الكُتَّاب والأدباء في الأندلس بصفة عامَّة ، وفي الحقبة الزمنية مجال البحث بصفة خاصَّة .

أهداف البحث :

❖يهدف هذا البحث إلى رصد القصور في النثر الأدبيّ بالأندلس عَصْرَي : الطوائف والمرابطين ، والبرهنة على توفُّر هذه المظاهر في النثر كما وُجِدَتْ في الشعر ، وبيان عدم اقتصار معالجتها على الشعراء فحسب ؛ لأنَّ الأدبَ بِوَجْهَيهِ – سواء أكان شعرًا أم نثرًا – وجهانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَة ، ومرآة نرى من خلالها تطوُّر المجتمعات ، بمختلف جوانبها السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعلميَّة وغيرها .

وتناولتُ في التمهيد : مصطلح (الحضارة) ، وأمَّا البحث وعنوانه (وَصْفُ القُصُورِ فِي النَّثْرِ الأَدَبِيِّ بِالأَنْدَلُسِ) ؛ فينقسم إلى : القُصُور في عصر ملوك الطوائف والقُصُور في عصر المرابطين .

التمهيد :

مُصْطَلَح الحَضَارَة (Civilization) :

وَصَفَ وِل ديورَانت (Will Durant) (ت1981م) الحضارة بأنها « نظام اجتماعيّ يُعِينُ الإنسانَ على الزيادة من إنتاجه الثقافيّ » [1] ، ثُمَّ شَرَعَ يُفَسِّرُ ما أُجْمِلَ وغَمُضَ ؛ فذكر أنها تتألف « من عناصر أربعة : الموارد الاقتصاديَّة ، والنُّظُم السياسيَّة ، والتقاليد الخُلُقِيَّة ، ومتابعة العُلُوم والفُنُون ، وهي تبدأ حيثُ ينتهي الاضطراب والقلق ؛ لأنَّهُ إذا ما أمِنَ الإنسانُ من الخوف ، تَحَرَّرَتْ في نَفْسِهِ دَوَافِعِ التطلُّع وعوامل الإبداع والإنشاء ؛ وبعدئذٍ لا تنفكُّ الحوافز تَسْتَنْهِضُهُ للمُضِيِّ في طريقه إلى فَهْمِ الحَيَاة » [2] .

لقد جعل وِل ديورَانت الحضارة إِرْثًا يُوَرَّثُ كَالعَادَاتِ وَالتَّقَالِيد ، وأَكَّدَ أنها تَشْمَلُ كُلّ تَقَدُّم في الفنون والعلوم ، وكل تَطَوُّر في الموارد الاقتصاديَّة ، والظواهر الاجتماعيَّة والنُّظُم السياسيَّة ، والتقاليد ، والعادات ، وصَرَّحَ بِأَنَّ القَلَقَ يَعُوقُ التَّقَدُّم الحَضَارِيّ ويُكَبِّلُ الإِبْدَاعَ .

---

(1) وِل ديورانت : قصة الحضارة ؛ نشأة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين ، دار الجيل ، بيروت ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ط4 ، 1988م ، ج1، م 1، ص3 .

(2) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ثُمَّ عَرَّف حسين مؤنس (ت1996م) الحضارة تعريفًا أكثر اتساعًا ؛ فجعلها تَشْمَلُ « ثَمَرَةَ كُلِّ جُهْدٍ يَقُومُ به الإنسان لتحسين حياته ، سواء أكان الجهد المبذول مقصودًا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة ماديَّة أم معنويَّة » [3] .

أي أَنَّ الحَضَارَةَ تَعْنِي كُلَّ جُهْدٍ يَبْذُلُه الإنسان ؛ لتنمية حياته وتطويرها وتحسينها على المستوى الماديّ والمعنويّ ؛ فمقياس الحضارة هو التحسُّن ، والغاية القُصْوَى للتحسين هي ما يَشْعُرُ به الإنسانُ من أمان واطمئنان وكفاية ماديَّة ومعنويَّة [4]وتظهر الحضارة في « مأكل الإنسان وملبسه وعاداته وعُمْرَانه وأبنيته وفكره وثقافته ... وفي أساليب تلقينه وتعليمه وبيعه وشرائه ، وزواجه وطلاقه ، وحياته وموته ، وحفلاته وأفراحه وأحزانه ، وأعياده ، وصحته ومرضه ، وأسلوب عيشه في سلامه وحربه » [5] ؛ فهي كُلُّ ما يُمَيِّزُ أُمَّة عن أُمَّة في حِقْبَة زَمَنِيَّة مُعَيَّنَة [6] ، إنها « كُلّ مُنْجَزَات أعمال الإنسان فِكْرِيًّا ووِجْدَانِيًّا وَعُمْرَانِيًّا لِيُحَقِّقَ ذَاتَهُ ، وَيُطَوِّرَ مُجْتَمَعَهُ ، وَيُسْهِمُ فِي المَسِيرَة الإِنْسَانِيَّة » [7] .

وأرى أنَّ الحضارةَ نَمَطٌ سُلُوكِيّ يَعْتَادُ عليه الإنسانُ في معيشته وحياته ؛ ويَظْهَرُ نِتَاجُ الحضارة في تفاعُل الإنسانِ مع الأشياء المحيطة به ، سواء أكانت ماديَّة أم معنويَّة ، ومِنْ ثَمَّ يُمْكِنُ القول إنَّ الحضارة تَضُمُّ الفُنُونَ والتقاليدَ والعلوم ، وتَشْمَل كُلَّ مَظَاهِر التَّغَيُّر التي تُؤَدِّي بِالأُمَّة إلى التقدُّم والازْدِهَار في المجالات المُتَنَوِّعَة من : الزراعة والتجارة والصناعة والعُمْرَان والأزياء والفنون المختلفة .

وَصْفُ القُصُورِ فِي النَّثْرِ الأَدَبِيِّ بِالأَنْدَلُسِ :

القُصُورُ فِي عَصْرُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ :

---

(3) حسين مؤنس : الحضارة ؛ دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعرفة (237) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط 2 ، سبتمبر 1998م ، ص 13 .

(4) المرجع السابق ، ص 48 – 49 .

(5) الحسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1406هـ – 1986م ، ص32.

(6) نَصْر مُحَمَّد عَارِف : الحَضَارَة ، الثَّقَافَة ، المَدَنِيَّة ؛ دِرَاسَة لِسِيرَة المُصْطَلَح وَدَلالَةِ المَفْهُوم ، سلسلة المفاهيم والمصطلحات (1) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، عمان ، ط2 ، 1415هـ – 1994م ، ص 34 .

(7) الحسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص 5 من تقديم الكتاب .

تَنَافَسَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ في بناء القصور ، وتهافتوا على جلب أمهر المهندسين المعماريين ، وتَفَنَّنُوا في زخرفة القصور ، وَزَيَّنُوها بفاخر الأثاث ، ونَقَشُوا على جُدْرَانِهَا زَخَارِف هندسيَّة ، ونقوشًا كتابيَّة .

وقد أكثر ملوك الطوائف من « بناء القصور والمجالس ، وعاشوا فيها حياة حافلة باللهو والمَلَذَّات » [8] ، ولقد أثارت القصورُ أخيلةَ الأدباء ؛ لأنهم « أحسوا في جَنَبَاتِهَا بالجَمَالِ المِعْمَارِيّ ، تُمَازِجُهُ العَظَمَةُ ، ويُخَالِطُهُ الجَلالُ » [9] .

وازدهر فن البناء في عصر ملوك الطوائف ، الذين تَبَارَوا في تفخيمِ القصور ؛ « إذْ رَغِب كل حاكم في دويلته أن يمتلك قصرًا على الأقل ؛ لِمَا يَعْنِيهِ هَذَا المَعْلَمُ الحَضَارِيُّ من أهمية في نفوس الحُكَّام ؛ فقد كان يُمَثِّلُ عندهم رمزًا للقوة والسيادة والعظمة والأُبَّهة » [10] ، « وبَلَغَ العُرَفاءُ والفَنَّانُونَ الغَايةَ في التفنُّن في التعقيد الزخرفي ... وإحداث تأثير جماليّ يُحَرِّكُ المَشَاعِرَ ، ويَهُزُّ النَّفْسَ » [11] .

وقد اتسمت قصور ملوك الطوائف بالفَخَامَةِ ؛ حيث بلغ التَّرَفُ مُنْتَهَاهُ معهم ، وقد أظهرت أوصاف هذه القصور « مَدَى الغُلُوّ في الحشد الزخرفيّ ، والمزج بين المنظر الطبيعيّ وفن البناء في صور فَنِيَّة رائعة » [12] .

وتقف الزخارف الجِصِّيَّة « على قائمة الأسلوب الزخرفيّ لعِمَارة مُلُوك الطَّوَائِف ، التي تَطَوَّرَتْ ، فِي مَرْحَلَةٍ مُتَقَدِّمة ، بالمزيد من الإثراء الزخرفيّ الذي لا يَنْضَبُ ...

---

(8) محمد عبد المنعم الجمل : قصور الحمراء ؛ ديوان العمارة والنقوش العربية ، تقديم إسماعيل سراج الدين ، مكتبة الإسكندرية ، الإسكندرية ، 2004م ، ص 33.

(9) هنري بيريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ؛ ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1408هـ – 1988م ، ص 141 .

(10) جمانة محمد عزمي زلوم : القصور في الشعر الأندلسي ؛ عصر ملوك الطوائف ، رسالة ماجستير ، عمادة الدراسات العليا ، جامعة الخليل ، فلسطين ، 1433هـ –2011م ، ص 7.

(11) السيد عبد العزيز سالم : العِمَارة الإسْلامِيَّة في الأندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، عدد خاص بعنوان (دراسات في التراث) ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد الثامن ، العدد الأول ، إبريل – مايو – يونيو 1977م ، ص99 .

(12) محمد عبد المنعم الجمل : قصور الحمراء ؛ ديوان العمارة والنقوش العربية ، ص 30.

في قصور طُلَيْطُلَة ... فقد ظهرت العناصر الزُّخْرُفِيَّة المتشابهة ، الحاملة لألوان زاهية ... والغاية هي إبداع جماليّ لا ينتهي » [13] .

أ) قُصُورُ بَنِي عَبَّاد فِي إِشْبِيلِيَة :

قَصْرُ **المُسْتَحْدَث** بَنَاهُ **المُعْتَضَد بن عبّاد** (ت461هـ) بجانب قصر الإمارة الثاني المعروف بـ(القصر القديم) ، وكان قريبًا من نهر الوادي الكبير ، وسُمِّيَ كذلك باسم (دار الإمارة العَبَّادِيَّة) ، وربما يكون هذا القصر العبَّادي هو القصر المكرَّم نفسه [14] .

وتجدر الإشارة إلى أن (المُكَرَّم) لا يُعَدُّ اسمًا لقصر مُعين ، ولكنَّه صفة استخدمها الأندلسيونَ لوصف قصور الإمارة التي كانت تُعقد فيها لقاءات الحُكَّام مع الوزراء والشعراء ، وتُدَارُ فيها شُؤُون البِلاد ، وكان وصف القصر بـ(المُكَرَّم) بغرض التعظيم والفخامة ؛ فنجد قصورًا كثيرة أُطْلِقَ عليها (القصر المُكَرَّم) ، ولم يقتصر ذلك الوصف على القصور ، بل اتسع ليشمل المساجد أيضًا ، مثل جامع قُرْطُبَة ، الذي أُطْلِقَ عليه (الجامع المُكَرَّم) ، و(الجامع الأعظم) [15] .

وكان الأمراء والخلفاء « يُشَيِّدُونَ قُصُورَ الحُكْمِ بجوار المساجد الجامعة ، وأطلقوا عليها اسم (دور الإمارة) ... وعمدوا إلى بناء قصور للراحة واللهو بعيدًا عن الحاضرة ؛ ليتمكنوا من الاستغراق في التَّرَف ، والاستمتاع بحياة اللهو والنعيم ، التي لا تُتَاحُ لَهُمْ في مَقَرِّ الحُكْمِ بالحَاضِرَة ، وكانت هذه القصور تَتَّخِذُ مظهرًا عُمرانيًّا شديد الشَّبه بالمُدُن الصغيرة ؛ فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ،

---

(13) باسيليون بابون مالدونادو : العمارة الإسلامية في الأندلس ؛ عمارة القصور ؛ القرن العاشر والحادي عشر ، عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف ، ترجمة علي إبراهيم المنوفي ، مراجعة محمد حمزة الحداد ، المشروع القومي للترجمة ، العدد (1515) ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 2010م ، 65/1 .

(14) انظر : السيد عبد العزيز سالم : قصور إشبيلية في العصر الإسلامي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد الخامس عشر ، العدد الثالث ، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر 1984م ، ص 137 .

(15) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986م ، ص 94.

ومن : منتزهات ، ومحال للوحش فسيحة ، ومسارح للطيور مُظَلَّلة بالشِّباك ، وأسواق ، وحمامات ، وفنادق ، ودور للصناعة ، ومساجد ، وغير ذلك » [16] .

وقصرُ **المعتضد بن عبَّاد** ، الذي « بناه المعتضد في إشبيلية ، وسَمَّاهُ بِاسْمِهِ ، وزاد عليه ووَسَّعَهُ ابنه المعتمد بن عبَّاد (ت488هـ) ، ويتألفُ القصرُ من طابقينِ كبيرينِ ، يحتوي الطابقُ الأولُ عددًا من الأفنية والأبهاء ، وكان بهو السُّفَرَاء أهمها ؛ فهو بهوٌ شاسعٌ تُظَلِّلُهُ قُبَّة عالية جِدًّا معقودة على عُمَد ومقرنصات عربيَّة بديعة الزخرفة ، وجُدْرَانُهُ مَكْسُوَّة بالقيشاني المُزَيِّن بِرُسُوم وخُطُوط هندسيَّة ، وتتَخَلَّلَها نُقُوشٌ عَرَبِيَّة ، وفي دائرة الجُدْرَان الوُسْطَى نُقِشَتْ عبارة عربيَّة مكررة في الدائرة كلها ، وهي : (الغِبْطَة المُتَّصِلَة) ، بمعنى : السعادة الدائمة ، وإلى جانبها أُسُود صغيرة ، وفي أفنيتها وأبهائها عِدَّة أبواب صغيرة وكبيرة أندلسيَّة الأصل ، وعليها نقوش عربيَّة » [17] .

وكان قصرُ **الزاهي** من أحب القصور إلي **المعتمد بن عَبَّاد** ؛ فكان يلجأ إليه كلما أراد أن يلهو ؛ ليجدَ فيه كل سُبل الراحة مع ندمائه ، وكانت قُبَّتُهُ (سعد السعود) تُظَلِّلُ فَوقَ جَمِيعِ قُصُورِهِ ، يقول : (الطويل)

وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سُعُودِهِ

غَيُورَينِ ، وَالصَّبُّ المُحِبُّ غَيُورُ [18]

وقد ذكر **المَقَّرِيّ** (1041م) قصر الزاهي في (نفحه) قائلاً : « وَكَانَ القَصْرُ الزَّاهِي مِنْ أَجْمَلِ المَوَاضِعِ لَدَيهِ وَأَبْهَاهَا ، وَأَحَبَّهَا إِلَيهِ وَأَشْهَاهَا ؛ لِإِطْلَالِهِ عَلَى النَّهْرِ ، وَإِشْرَافِهِ عَلَى القَصْرِ ، وَجَمَالُهُ فِي العُيُونِ ، وَاشْتِمَالُهُ بِالزَّهْرِ وَالزَّيتُونِ ، وَكَانَ لَهُ بِهِ مِنَ الطَّرَبِ ، وَالعَيشُ المُزْرِي بِحَلاوَةِ الضَّرَبِ ، مَا لَمْ يَكُنْ بِحَلَبٍ لِبَنِي حَمْدَانِ ، وَلا لِسَيفِ بْن ذِي يَزَنٍ فِي رَأْسِ غُمْدَانِ ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُدِيرُ بِهِ رَاحَهُ ، وَيَجْعَلُ فِيهِ انْشِرَاحَهُ ؛ فَلَمَّا امْتَدَّ الزَّمَانُ إِلَيهِ بِعُدْوَانِهِ ، وَسَدَّ عَلَيهِ أَبْوَابَ سُلْوَانِهِ ، لَمْ يَحِنَّ إِلاَّ إِلَيهِ ، وَلَمْ يَتَمَنَّ غَيرَ الحُلُولِ لَدَيهِ » [19] .

---

(16) المرجع السابق ، ص51.

(17) جمانة محمد عزمي زلوم : القصور في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، ص8 – 9 .

(18) المُعْتَمِد بن عَبَّاد : ديوان المُعْتَمِد بن عَبَّاد ؛ ملك إِشْبِيلِية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميَّة ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ – 2002م ، ص 99 .

(19) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ – 1988م ، 275/4 .

يَصِفُ قَصْرًا جَمِيلاً فخمًا بَهِي المَنْظَر ، لا مثيل لروعته وجماله إذا ما قورن بغيره من قصور بني حَمْدَان بِحَلَب ، أو حُصُون سيف بن ذي يزن في جبال اليمن ، وكأنه جمع كل مظاهر الجَمَال واستوفاها ؛ مِمَّا جَعَلَهُ يُمَثِّلُ راحةً للمعتمد ، وانشراحًا لصدره ، وشفاءً لِعِلَّتِهِ ؛ ولذلك حَنَّ إليه في سجن يوسف بن تاشفين (ت500هـ) .

يشير إلى أبيات شعرية قالها المعتمد عندما نفاه المرابطونَ إلى العُدْوَة متذكرًا قُصُوره : (الزاهي – المبارك – الثريا – الوحيد) ، مشتاقًا إليها ، يقول : (البسيط)

بَكَى المُبَارَكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَّادِ بَكَى عَلَى إِثْرِ غِزْلانٍ وَآسَادِ
بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لاُ غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا بِمِثْلِ نَوءِ الثُّرَيَّا الرَّائِحِ الغَادِي
بَكَى الوَحِيدُ ، بَكَى الزَّاهِي وَقُبَّتِهِ وَالنَّهْرُ، وَالتَّاجُ ، كُلٌّ ذُلُّهُ بَادِي [20]

والقصرُ **المُبَارَك** من قُصُور **المُعْتَمد** في إِشْبِيلِيَة ، وقد « ذاعت شهرته بين قصور بني عَبَّاد جميعًا لعظمته وبهائه وجمال زخرفته » [21] ، وقد حاكى المُعْتَمِدُ في بنائه له الأُمَوِيِّينَ في قُرْطُبَة ، الذين أَسَّسُوا قصورًا ومجالس في قصر الخلافة القُرْطُبِيّ ؛ ولذلك بناه بجانب قصر الإمارة العبَّادي شرق نهر الوادي الكبير ، وتتميز القاعة الرئيسة له « بزخارفها الذهبيَّة ، والجدول الذي يخترقها لِيَصُبَّ في بِرْكَة ... كالمرآة تتوسط البهو الذي تعلوه قُبَّة جَمَعَتْ مِنَ الزخارف البَهِيَّة كل غريبة ، وتَأَلَّقَتْ بأضواء تَتَسَلَّل من منافذ القُبَّة ؛ فتغمر البهوَ بِسَنَا نُورِهَا ، وكان باطن القُبَّة مَكْسُوًّا بزخارف نَجْمِيَّة » [22] .

وقد كتب **أبو جعفر بن أحمد الداني** رُقْعَة أَنْشَأَها على لسان **القصر المبارك** ، الذي انتقل عنه المعتمد إلى **القصر المُكَرَّم** ، يقول : « أَيُّهَا القَصْرُ المُكَرَّمُ ، لا جَرَمَ أَنَّهُ لَكَ السَّبْقُ وَالتَّقَدُّمُ ؛ فَإِنَّكَ أُسُّ الخِلافَةِ ، وَقَرَارَةُ الرِّيَاسَةِ ، وَمَرْكَزُ الدُّوَلِ المُتَدَاوَلَةِ ، شَهِدَتْ الأَشْهَادُ أَنَّهُ بِكَ مُهِّدَتِ البِلادُ ، وَعَنْكَ انْبَثَّتِ الجِيَادُ ، كَأَنَّهَا الجَرَادُ ، عَلَى حِينِ اشْتَدَّتِ شَوكَةُ المَارِقِينَ ، وَحَمِيَتْ جَمْرَةُ المُعَانِدِينَ ؛ فَأَلَظُّوا بِهِمْ مُجَلِّحِينَ ، وَشَنُّوا عَلَيهِمُ الغَارَةَ مُمَسِّينَ وَمُصَبِّحِينَ ، وَأَذَلُّوا كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيد ، وَقَطَعُوا دَابِرَ كُلِّ خَتَّارٍ مَرِيد ...

---

(20) المُعْتَمِد بن عَبَّاد : ديوان المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، ص 95 .
(21) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص99.
(22) المرجع السابق ، ص103 – 104 .

بِتَدْبِيرِ قَاضِي العَدْلِ ، وَحُكْمِ عَبَّادِ البَأْسِ وَالفَضْلِ ... فَأَصْبَحْتُ – وَاللهُ وَلِيُّ الإِحْمَادِ – هَضَبَةَ القُصَّادِ ، وَنُجْعَةَ الرُّوَّادِ ، وَكَعْبَةَ بَنِي الأَمَلِ ، وَعِصْمَةَ كُلِّ خَائِفٍ وَجِلِ » [23] .

يصف الكاتبُ القصرَ المُكَرَّمَ بأنه قديمٌ جديد ، وهذا يشير إلى أصالته ، ويكشف عن تَحَضُّرِهِ ، الذي جعله يُوَاكِبُ كُلَّ العُصُورِ ، بل يفوق بطريقة تأسيسه أفخم القصور ، فهو مَقَرُّ الرئاسة ، ومنه تخرج الغارات صباحًا ومساءً قاضيةً على أعدائهم الملحدين بكل قوة فقطعوا دابرهم مما جعله قبلة لكل خائف .

ويجيب **أبو جعفر بن أحمد الداني** عن الرسالة السابقة ؛ فيقول على لسان **القصر المُكَرَّم** : « وَللهِ يَا سَيِّدَ القُصُورِ ، وَبَهْجَةَ الدُّهُورِ ، مَا تَقَرَّرَ لَكَ لَدَيَّ ، وَقُصَّ عَنْكَ إِلَيَّ ، مِنْ مَحَاسِنَ أَحْرَزَتْهَا صِفَتُكَ ، وَفَسَّرَتْهَا جُمْلَتُكَ ، مِنْ تَحَلِّيكَ بِوَجْهَيْنِ عَلَى مَنْصِبَيْنِ ، مُفْضِيَيْنِ إِلَى مَجْلِسٍ بَيْنَ حَيْرَيْنِ ، كِلاهُمَا مَحَاسِنُهُ فَائِقَة ، وَبَسَاتِينُهُ رَائِقَة ، ذَوَاتُ أَفْنَانٍ مُتَعَانِقَة ، تُعَانُقَ الخِلاَّنِ ، تُلْهِيكَ عَنْ قُدُودِ العَذَارَى ، وَتُنْسِيكَ مَعَاطِفَ النَّوَاعِمِ السَّكَارَى ، قَدْ أَقَامَتْ مِنَ الأَوْرَاقِ ، شَكْلَ الرِّوَاقِ ؛ فَيَمُرّ النَّسِيمُ بِهَا عَلِيلاً ، وَتُلاحِظُ طَرْفَ الشَّمْسِ أَثْنَاءَهَا كَلِيلاً ؛ فَأَنْتَ مِنْهَا فِي ظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَطَلْحٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » [24] .

يَصِفُ القَصْرَ المُبَارَكَ ، وما به من مظاهر تَرف ؛ حيثُ البساتين الرائقة ، بأشجارها الملتفة المتعانقة الأغصان ، وكأنها ترسم لوحة حضارية ، تُلْهِيكَ – مِنْ فَرْطِ جَمَالِهَا – عن مغازلة الحِسَان .

وقصرُ **الوحيد** أحد المجالس البارزة في القصر المُبَارَك الإِشْبِيلِيّ ، « وله بركة نُصِبَ في جَانَبٍ منها تِمْثَال فيل يَمُجُّ الماءَ من فِيهِ » [25] .

وكان قصرُ **الثُّرَيَّا** « يتوسط القصر المُبَارك تَوَسُّط الخَال في الوجه ، وأغلب الظن أن الثريا هي البهو والمُقَبَّب الذي تَتَوَسَّطُهُ البِرْكَةُ المُلْحَقَةُ بِقَصْرِ المُبَارَك » [26] .

وقصرُ **الشَّرَاجِيب** بِشِلْب (Silves) ، ويعرف كذلك باسم قصر شِلْب ، تلك المدينة التي « لها بسائط فسيحة وبطائح عريضة ، ولها جبل عظيم مُنِيف كثير

---

(23) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399هـ – 1979م ، 3/2/759 – 760 .

(24) المصدر السابق ، 3/2/763 .

(25) السيد عبد العزيز سالم : العِمَارة الإِسْلامِيَّة في الأندلس وتطورها ، ص101 .

(26) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص104.

المسارح والمياه ، وأكثرُ ما يَنْبُتُ فيه شجر التُّفَّاح العجيب يتضوع منه رَوَائِح العُود إذا أرسلت فيه النار ، وهي في بسيطٍ من الأرض عليها سُورٌ حَصِين ، ولها جَنَّاتٌ وغَلاَّت ، وشُرْب أَهْلِهَا من واديها الجاري إليها من جهة جنوبها ... والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى في الوادي ... والعُود بجبالها كثير يحمل منها إلى كُلِّ الجهات ، والمدينة حسنة الهيئة بديعة البناء مُرَتَّبة الأسواق » [27] .

وقد بَنَى المعتمدُ هذا القصر في مدينة شِلْب ، عندما كان واليًا عليها سنة 455هـ ، في عهد والده المُعتضد ، ويقع هذا القصر داخل حِصْنِها القديم المنيع ، « وهو حصنٌ كبير ، يشغل رقعة واسعة ، تدور حولها أسواره وأبراجه العديدة ، في شبه دائرة » [28] .

وقصرُ الشَّراجيبِ « مُنْتَاهٍ فِي البَهَاءِ وَالإِشْرَاقِ ، مُبَاهٍ لِزَورَاءِ العِرَاقِ ، رَكَضَتْ فِيهِ جِيَادُ رَاحَاتِهِ ، وَأَومَضَتْ بُرُوقُ أَمَانِيهِ فِي سَاحَاتِهِ ، وَجَرَى الدَّهْرُ مُطِيعًا بَينَ بُكَرِهِ وَرَوحَاتِهِ ، أَيَّامَ لَمْ تُحَلُّ عَنْهُ تمَائِمُهُ ، وَلا خَلَتْ مِنْ أَزْهَارِ الشَّبَابِ كَمَائِمُهُ ، وَكَانَ يَعْتَدُّهَا مَجْنَى آمَالِهِ وَمُنْتَهَى أَعْمَالِهِ ، إِلَى بَهْجَة جَنَبَاتِهَا ، وَطِيبِ نَفَحَاتِهَا وَهَبَّاتِهَا ، وَالتِفَافِ خَمَائِلِهَا ، وَتَقَلُّدِهَا بِنَهْرِهَا مَكَانَ حَمَائِلِهَا » [29] .

وقصرُ **دار المُزَينِيَّة** : وهي دار ريفيَّة بناها **المعتمد** وَسْطَ الأزهار والرياض ، وكأنها لوحة فنيَّة جميلة لمنظر طبيعي ، وقد ازدانت « قَاعَاتُهَا بالتوريق والتشجير المُلَوَّن ، وكانت تَلُفُّهَا الأشجارُ وتَكْتَنِفُهَا الأزهارُ ، وتحيطُ بها الرياضُ النَّضِرَةُ ، التي تكسوها الورود وزهور الآس والجُلَّنَار الزاهية ، والظاهر أنَّ المعتمد أقامها بين بساتين قصره ليقضي فيها مجالس أُنْسِهِ ومَرَحِهِ » [30] .

وقد ذَكَر **ذُخْرُ الدَّولة** أنه دخل على المُعْتَمِد « فِي دَارِ المُزَينِيَّة ، وَالزَّهْرُ يَحْسِدُ إِشْرَاقَ مَجْلِسِهِ ، وَالدُّرُّ يَحْكِي اتِّسَاقَ تَأَنُّسِهِ ، وَقَدْ رَدَّدَتِ الطَّيرُ شُجُونِهَا ، وَجَوَّدَتْ طَرَبَهَا

---

(27) الحِمْيَرِيّ : الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980م ، ص 342 .

(28) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ؛ دراسة تاريخية أثرية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1417هـ – 1997م ، ص 404 .

(29) ابن خَاقَان : قَلائِد العِقْيَان ومحاسن الأعيان ، حَقَّقَهُ وعَلَّق عليه حسين يوسف خريُوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط1 ، 1409هـ – 1989م ، 112/1 .

(30) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص 117 .

وَلَهْوَهَا ، وَالغُصُونُ قَدِ الْتَحَفَتْ بسُنْدُسِهَا ، وَالأَزْهَارُ تُحَيِّي بِطِيبِ تَنَفُّسِهَا ، وَالنَّسِيمُ يُلِمُّ بِهَا فَتَضَعَهُ بَينَ أَجْفَانِهَا ، وَتُودِعُهُ أَحَادِيثَ آذَارِهَا وَنِيسَانِهَا ، وَبَينَ يَدَيهِ فَتًى مِنْ فِتْيَانِهِ ، يَتَثَنَّى تَثَنِّي القَضِيبِ ، وَيَحْمِلُ الكَأْسَ فِي رَاحَةٍ أَبْهَى مِنَ الكَفِّ الخَضِيبِ ، وَقَدْ تَوَشَّحَ ، وَكَأَنَّ الثُّرَيَّا وِشَاحُهُ ، وَأَنَارَ فَكَأَنَّ الصُّبْحَ مِنْ مُحَيَّاهُ كَانَ اتِّضَاحُهُ ؛ فَلَمَّا نَاوَلَهُ الكَأْسَ ، خَامَرَهُ سَورَةَ ، وَتَخَيَّلَ أَنَّ الشَّمْسَ تُهْدِيهِ نُورَهُ » [31] .

اشتملت قُصُورُ بني عَبَّاد على كُلِّ سُبُلِ الرَّفَاهِيَة ، وصُنُوف النعيم من : حدائق ، وأماكن للحيوانات والطيور ، وأسواق ، وحمامات ، ومساجد .

ب) قُصُورُ بَنِي ذِي النُّون فِي طُلَيْطُلَة :

بنى **المَأمُونُ يَحْيَى بْن ذِي النُّون** (ت467هـ) قصر **طُلَيْطُلَة** سنة 455هـ رمزًا للزعامة على الممالك الأخرى ، « وأتقنه للغاية ، وأنفق عليه أموالاً طائلة ، وصنع وسطه بُحَيرَة ، وصنع في وَسْط البُحَيرَة قُبَّة من زجاج مُلَوَّن منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القُبَّة بِتَدْبِيرٍ أحكمه المهندسونَ ؛ فكان الماءُ يَنْزِلُ من أعلى القُبَّة على جوانبها مُحِيطًا بها ، ويَتَّصِلُ بعضه ببعض ؛ فكانت قُبَّةُ الزُّجَاجِ في غُلالة مِمَّا يُسْكَبُ من الماء ... والمأمون جالس فيها ، لا يَمَسُّهُ شيء من الماء ، وقد أُوقِدَتْ له فيها الشموعُ » [32] .

وقد أورد ابن بَسَّام قول **ابن حَيَّان القُرْطُبِيّ** في وصف حفل طَهور حفيد المأمون يحيى بن ذي النُّون ، وما كان مِنْ ضُيُوفه بعد أن فرغوا من طعامهم ، يقول : « فَلَمَّا اسْتَمَّ هَؤُلاءِ الخَلَّةُ نَعِيمَ يَومِهِمْ ، مِنْ طَعْمِهِمْ وَطِيبِهِمْ ، أَقِيمُوا لِلدُّخُولِ عَلَى المَأْمُونِ ؛ فَسَلَّمُوا عَلَيهِ ، وَدَعَوا لَهُ ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيهِمْ أَحْسَنَ قَبُول ، وَرَدَّ أَجْمَلَ رَدّ ، وَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِمْ إِلَى سَيِّدِ مَجَالِسِهِ المُسَمَّى المُكَرَّم ، نَتِيجِ هِمَّتِهِ ، وَبَدِيعِ حِكْمَتِهِ ، السَّائِرِ خَبَرُهُ ، الطَّائِرِ ذِكْرُهُ ، المَعْدُومِ نِظْرُهُ ؛ لِيُمْتِعُوا أَبْصَارَهُمْ بِالنُّزْهَة ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهُمْ رَآهُ إِلَى يَومِهِمْ ذَلِكَ مَعَ عُلُوقِ وَصْفِهِ بِخَوَاطِرِهِمْ ؛ فَلَمَّا رَأَوهُ صَغُرَ عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَهُ مِنْ وَصْفِهِ ، وَرَجَّعُوا أَبْصَارَهُمْ فِيهِ ، وَنَبَّهَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى دَقَائِقِ مَعَانِيهِ » [33] .

---

(31) ابن خَاقَان : قَلائِد العِقْيَان ، 63/1 .

(32) السيد عبد العزيز سالم : العِمَارة الإِسْلامِيَّة في الأندلس وتطورها ، ص100 .

(33) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 132/1/4 .

أراد الضيوف أن يجمعوا بين أكثر مِنْ مُتْعَةٍ معًا ؛ لذا بعد أنْ انتهوا من الاستمتاع بطعامهم وشرابهم ، وَجَّهُوا جُلَّ اهْتِمَامِهِمْ إلى تَأَمُّل ذلك القصر ، الذي كثيرًا ما سَمِعُوا عنه ، وقد سَنَحَتِ الفُرْصَةُ لهم ؛ فسَلَّمُوا على المأمون ، ودَعَوا له ؛ فحياهم بتحية أحسن من تحيتهم ، وأذن لهم في دخول القصر ، وعندما رأوه صَغُر في نظرهم ما كانوا يُعَظِّمُونَهُ مِنْ وَصْفِهِ ، وكَرَّرُوا النظر إليه مَرَّةً بعد أخرى ؛ من فَرْطِ جَمَالِهِ .

ويُتَابِعُ **ابنُ حَيَّان** وصف **القصر المُكَرَّم** ، **أحد مجالس هذا القصر** ، قال ابن جابر : « وَكُنْتُ مِمَّنْ أَذْهَلَتْهُ فِتْنَةُ ذَلِكَ المَجْلِس ، وَأَغْرَبُ مَا قَيَّدَ لَحْظِي مِنْ بَهِيِّ زُخْرُفِهِ الذِي كَادَ يَحْبِسُ عَينِي عَنِ التَّرَقِّي عَنْهُ إِلَى مَا فَوقَهُ إِزَارُهُ الرَّائِعُ الدَّائِرُ بِأُسِّهِ حَيثُ دَار ، وَهُوَ مُتَّخِذٌ مِنْ رَفِيعِ المَرْمَرِ الأَبْيَضِ المَسْنُون ، الزَّارِيَةِ صَفَحَاتُهُ بِالعَاجِ فِي صِدْقِ المَلاسَةِ وَنَصَاعَةِ التَّلْوِين ، قَدْ خُرِّمَتْ فِي جُثْمَانِهِ صُوَرٌ لِبَهَائِمَ وَأَطْيَارٍ وَأَشْجَارٍ ذَاتِ ثِمَار ، وَقَدْ تَعَلَّقَ كَثِيرٌ مِنْ تِلْكَ التَّمَاثِيلِ المُصَوَّرَةِ بِمَا يَلِيهَا مِنْ أَفْنَانِ أَشْجَارٍ وَأَشْكَالِ الثَّمَرِ مَا بَينَ جَانٍ وَعَابِث ، وَعَلَقَ بَعْضُهَا بَعْضًا بَينَ مُلاعِبٍ وَمُثَاقِف ، تَرْنُو إِلَى مَنْ تَأَمَّلَهَا بِأَلْحَاظِ عَاطِف ، كَأَنَّهَا مُقْبِلَةٌ عَلَيهِ ، أَو مُشِيرَةٌ إِلَيهِ ، وَكُلُّ صُورَةٍ مِنْهَا مُنْفَرِدَةٌ عَنْ صَاحِبَتِهَا ، مُتَمَيِّزَةٌ مِنْ شَكْلِهَا ، تَكَادُ تُقَيِّدُ البَصَرُ عَنِ التَّعَلِّي إِلَى مَا فَوقَهَا ، قَدْ فَصَلَ هَذَا الإِزَارَ عَمَّا فَوقَهُ كِتَابُ نَقْشٍ عَرِيضُ التَّقْدِير ، مُخَرَّمٌ مَحْفُور ، دَائِرٌ بِالمَجْلِسِ الجَلِيلِ مِنْ دَاخِلِهِ ، قَدْ خَطَّهُ المِنْقَارُ أَبيَنَ مِنْ خَطِّ التَّزْوِير ، قَائِمُ الحُرُوفِ بَدِيعُ الشَّكْلِ ، مُسْتَبِينٌ عَلَى البُعْد ، مَرْقُومٌ كُلَّهُ بِأَشْعَارٍ حِسَان ، قَدْ تُخُيِّرَتْ فِي أَمَادِيحِ مُخْتَرِعِهِ المَأْمُون ، وَفَوقَ هَذَا الكِتَابِ الفاصِلِ فِي هَذَا المَجْلِسِ بُحُورٌ مُنْتَظِمَةٌ مِنَ الزُّجَاجِ المُلَوَّنِ المُلَبَّسِ بِالذَّهَبِ الإِبْرِيز ، وَقَدْ أُجْرِيَتْ فِيهِ أَشْكَالُ حَيَوَانٍ وَأَطْيَار ، وَصُوَرُ أَنْعَامٍ وَأَشْجَارٍ ، يُذْهِلُ الأَلْبَابَ وَيُقَيِّدُ الأَبْصَارَ ، وَأَرْضُ هَذِهِ البِحَارِ مَدْحُوَّةٌ مِنْ أَورَاقِ الذَّهَبِ الإِبْرِيز ، مُصَوَّرَةٌ بِأَمْثَالِ تِلْكَ التَّصَاوِيرِ مِنَ الحَيَوَانِ وَالأَشْجَارِ بِأَتْقَنِ تَصْوِيرٍ وَأَبْدَعِ تَقْدِير » [34] .

تَزَيَّنَ حائطُ المَجْلِسِ بفتحاتٍ بها صُوَر مُجَسَّمة لحيواناتٍ وطيور ، وأشجار ذات أغصان وثمار ، وكُلٌّ مِنْهَا مُعَلَّقٌ بطريقة بديعة ، كما أُحِيطَ الحائط بالرُّخَام الصُّلْب القَوِيّ الأَبْيَض ، وما يتداخل به من عاجٍ مُلَوَّن بهيج ناعم الملمس ؛ فكان المجلسُ كالتُّحْفَة الفَنِّيَّة البهيجة .

(34) المصدر السابق ، 132/1/4 – 133 .

وقد زُيِّنَ مجلس القصر المُكَرَّم بصُوَر البَهَائم والطيور والأشجار المُثْمِرَة ، وفوقه أشعار منقوشة على الجُدْرَان في مدح المأمون بن ذي النُّون ، وقد استخدموا الذهب للزخرفة بوصفه مظهرًا من مظاهر الحضارة .

وكان في فناء قصر طُلَيْطُلَة بحيرتانِ ، تنتصبُ في أركانهما تماثيل أُسُود مَصْنُوعة مِنَ الذهب ، يَصِفُهُمَا ابن حَيَّان بقوله : « وَلِهَذِهِ الدَّارِ بُحَيرَتَانِ ، قَدْ نُصَّتْ عَلَى أَرْكَانِهِمَا صُوَرُ أُسُودٍ مَصُوغَةٌ مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ أَحْكَمَ صِيَاغَة ، تَتَخَيَّلُ لِمُتَأَمِّلِهَا كَالِحَةَ الوُجُوهِ فَاغِرَةَ الشُّدُوق ، يَنْسَابُ مِنْ أَفْوَاهِهَا نَحْوَ البُحَيرَتَينِ المَاءُ هَونًا كَرَشِيشِ القَطْرِ أَو سُحَالَةِ اللُّجَين ، وَقَدْ وُضِعَ فِي قَعْرِ كُلِّ بُحَيرَةٍ مِنْهُمَا حَوضُ رُخَامٍ يُسَمَّى المَذْبَح ، مَحْفُورٌ مِنْ رَفِيعِ المَرْمَر ، كَبِيرُ الجِرْم ، غَرِيبُ الشَّكْلِ ، بَدِيعُ النَّقْشِ ، قَدْ أُبْرِزَتْ فِي جَنَبَاتِهِ صُوَرُ حَيَوَانٍ وَأَطْيَارٍ وَأَشْجَار ، وَيَنْحَصِرُ مَاؤُهُمَا فِي شَجَرَتَي فِضَّةٍ عَالِيَتَي الأَصْلَين ، غَرِيبَتِي الشَّكْل ، مُحْكَمَتَي الصَّنْعَة ، قَدْ غُرِزَتْ كُلُّ شَجَرَةٍ مِنْهَا وَسْطَ كُلِّ مَذْبَحٍ بِأَدَقِّ صِنَاعَة ، يَتَرَقَّى فِيهِمَا المَاءُ مِنَ المَذْبَحَينِ فَيَنْصَبُّ مِنْ أَعَالِي أَفْنَانِهِمَا انْصِبَابَ رَذَاذِ المَطَرِ أَو رَشَاشِ التَّنْدِيَةِ ؛ فَتَحْدُثُ لِمُخْرِجِه نَغَمَاتٌ تُصْبِي النُّفُوس ، وَيَرْتَفِعُ بِذِرْوَتِهَا عَمُودُ مَاءٍ ضَخْم مُنْضَغِطِ الانْدِفَاعِ ، يَنْسَابُ مِنْ أَفْوَاهِهَا ، وَيُبَلِّلُ أَشْخَاصَ أَطْيَارِهَا وَثِمَارِهَا ، بِأَلْسِنَةٍ كَالمَبَارِدِ الصَّقِيلَة ، يُقَيِّدُ حُسْنُهَا الأَلْحَاظَ الثَّاقِبَةَ ، وَيَدَعُ الأَذْهَانَ الحَادَّةَ كَلِيلَة » [35] .

يُبين الترف الواسع من خلال تصويرٍ ناطقٍ مُعَبِّر ، يصف مظاهر الجمال الموجودة في فِنَاء قصر طُلَيْطُلَة ، ومنها : البحيرتان ، وتماثيل الأسود المصنوعة من الذهب ، الواقفة على جانب كل بُحَيرَة فاتحةً أفواهها لِتَرُشَّ منها المياه ، كقطرات المطر حينًا ، وكخيوط الفضة المُنْسَابَة في أحواض رُخَامِيَّة مُذَهَّبَة حينًا آخر ، في منظر بديع الصنعة ، يتخلل ذلك الأشجار والأزهار بألوانها الخلابة التي تتناسب مع تغريد الطيور ، وكأنك في جَنَّة على الأرض .

ويتحدث **ابن بَسَّام** عن **قُصُورِ طُلَيطُلَة** ؛ فيقول : « ثُمَّ أَخَذَ المَأْمُونُ فِي بِنَاءِ مَجْلِسِهِ الكَبِيرِ المُكَرَّم بِنَاءً بَاءَ بِإِثْمِه ، وَخَلا سَرِيعًا مِنْ اسْمِهِ ، لَمْ يُخَلِّدْهُ فِي عَقِب ، وَلا

(35) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 133/1/4 – 134 .

قَضَى مِنْ لَذَّتِهِ بِهِ كَبِيرُ أَرَب ، وَكَانَ الذِي تَوَلَّى لَهُ رَصْفَ بَدَائِعِه ، وَإِحْكَامَ مَصَانِعِه ، رَجُلٌ مِنْ مَهَرَةِ الفَعَلةِ » [36] .

بدت في جوانب قصر المأمون بطُلَيطُلَة مظاهر التحضُّر والرَّفَه ؛ حيثُ كان منبعًا لراحة النفوس ، كلَّف المأمون بن ذي النُّون مبالغ ضخمة ليصبح بتلك الهيئة الفخمة ، وألحقه ببُحَيرَة في وسطها قُبَّة من الزجاج الملَّون المَنْقُوش بِالذَّهَب ، ولا نُغْفِلُ الألوانَ في المظاهر الحضاريَّة ؛ فهي مظهرٌ حضاريٌّ قويٌّ ؛ لِمَا تَدُلُّ عليه من معاني البهجة والسرور والتمتُّع بالحياة ، والماء الذي يجري وينساب بسرعة في نظامٍ دُونَ إِخْلالٍ بِالغَرَضِ المَنُوطِ بِهِ ، وهو استمتاع مَنْ يَراه برؤية جَمَالِ مَنْظَرِهِ ؛ فيا لَها مِنْ رَوعَةٍ تبعث البهجة والمتعة ؛ حيث يجلسُ المأمونُ بين الشموع المُقَادة ، وأمامه هذا المنظر البهيج ، وعلى جانبيه بحيرتانِ في أركانهما أُسُودٌ من الذهب الإبريز فاتحةً أفواهها ينساب منها المياه اللُّجَينِيَّة في أحواضٍ مَرْمَرِيَّةِ الصُّنْعِ ، وتُحَلِّقُ الطيورُ المُغَرِّدَة فوقَ الأشجارِ البَاسِقَة ، وكأننا أمام لوحة فنيَّة بديعة .

ج) قُصُور بَنِي هُود في سَرَقُسْطَة :

قصر **الجَعْفَرِيَّة** بِسَرَقُسْطَة (Zaragoza) ، يُنْسَبُ إلى أبي جعفر أحمد بن سُليمان بن هُود المُلَقَّب بـ(**المُقْتَدِر بالله**) (ت475هـ) ، ويُطْلَقُ عليه (دار السُّرُور) [37] ؛ لِمَا يَشْتَمِلُ عليه مِنْ البهو الرائع ، الذي « زُيِّنَتْ جُدْرَانُهُ بالنقوش الذهبيَّة البديعة ؛ لذلك كان يُسَمَّى بالبهو الذهبيّ أو مجلس الذهب » [38] .

وغيرُ خَافٍ أَنَّ مِنْ مظاهر الترف بناء أبراج مُرْفَقَة بِالقُصُور لِحِمَايَتِهَا مِنْ أَيِّ خَطَرٍ ؛ « ففي قصر الجعفرية قام المُقْتَدِر ببناء قَصْر مَلَكِيّ منيع يحيط به سُورٌ مستطيل الشكل ، وأبراج أُسْطُوَانِيَّة ، وأبراج أخرى مستقيمة للدفاع عن القصر ، وفي داخل القصر غُرَف مُرَتَّبة حول صحن القصر ، الذي يفضي إلى مسجد صغير فيه

---

(36) المصدر السابق ، 147/1/4 .

(37) حيث يقول مُنْشِؤُهُ المُقْتَدِر بالله : (السريع)

قَصْرُ السُّرُورِ وَمَجْلِسُ الذَّهَبِ بِكُمَا بَلَغْتُ نِهَايَةَ الطَّـرَبِ

لَو لَـمْ يَحُزْ مُلْكِي خِلافَكُمَا لَـكَانَ لَـدَيَّ كِفَـايَـةِ الأَرَبِ

– انظر : محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ص 106 .

(38) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ص 105 – 106 .

مِحْراب على شكل حَدْوَة الفرس ... أما قوس المدخل فمُرَصَّع بِنُقُوشٍ قَلِيلَة النُّتُوءَات»[39] .

د) قُصُورُ بَنِي صُمَادِح فِي المَرِيَّة :

بنى **المُعْتَصِم بن صُمَادِح** (ت484هـ) قصر **الصُّمَادِحِيَّة** في ضواحي المَرِيَّة ، وقد اشتهر ذلك القصر بمجلس الحَافة ، وضَمَّ مجموعة من القُصُور الفَخْمَة ، التِي شُبِّهَتْ بِرَجُل حَسَن المَنْظَر ، جَمِيل الهَيئَة ، ولكنه أعور ، وذلك بسبب جَنَّة كانت لأيتام ، وكان ضَمُّهَا لِقُصُور بني صُمَادِح سَيُكْمِلُ نَقْصَهَا ، ولكن المعتصم تركها لصاحبها لادِّعَائِهِ أنها لأيتامٍ مِنْ أَقَارِبِهِ ، ذاكرًا له قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[40] ، قائلاً : « أَنْتَ مَلِكٌ قَدْ وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَيكَ ، وَمَكَّنَ لَكَ فِي الأَرْضِ ، وَيَحْمِلُكَ الحِرْصُ عَلَى مَا يَفْنَى أَنْ تَضُمَّ إِلَى جَنَّتِكَ الوَاسِعَةِ العَظِيمَةِ قَطْعَةَ أَرْضٍ لأَيتَامٍ حَرَّمْتَ بِهَا حَلالَهَا ، وَخَبَّثْتَ طِيبَهَا ؛ وَلَئِنْ تَحَجَّبْتَ عَنِّي بِسُلْطَانِكَ ، وَاقْتَدَرْتَ عَلَيَّ بِعِظَمِ شَأْنِكَ ؛ فَنَجْتَمِعَ غَدًا بَينَ يَدَي مَنْ لا يُحْجَبُ عَنْ حَقٍّ ، وَلا تَضِيعُ عِنْدَهُ شَكْوَى ؛ فَلَمَّا اسْتَوعَبَ قِرَاءَتَهَا دَمِعَتْ عَينَاهُ ، وَأَخَذَتْهُ خَشْيَةٌ خِيفَ عَلَيهِ مِنْهَا ، وَكَانَتْ عَادَتُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَقَالَ : عَلَيَّ بِالمُشْتَغِلِينَ بِبِنَاءِ الصُّمَادِحِيَّة ؛ فَأُحْضِرُوا ؛ فَاسْتَفْسَرَهُمْ عَمَّا زَعَمَ الرَّجُلُ ؛ فَلَمْ يَسَعْهُمْ إِلاَّ صِدْقُهُ ، وَاعْتَذَرُوا بِأَنَّ نَقْصَهَا مِنَ الصُّمَادِحِيَّةِ يَعِيبُهَا فِي عَينِ النَّاظِرِ ؛ فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَقَالَ : وَاللهِ إِنَّ عَيبَهَا فِي عَينِ الخَالِقِ أَقْبَحُ مِنْ عَيبِهَا فِي عَينِ المَخْلُوقِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ تُصْرَفَ عَلَيهِ ، وَاحْتَمَلَ تَعْوِيرَهَا لِصُمَادِحِيَتِهِ . وَلَقَدْ مَرَّ بَعْضُ أَعْيَانِ المَرِيَّةِ وَأَخْيَارِهَا مَعَ جَمَاعَةٍ عَلَى هَذَا المَكَانِ الذِي أُخْرِجَتْ مِنْهُ جَنَّةُ الأَيتَامِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : وَاللهِ لَقَدْ عَوَّرَتْ هَذِهِ القِطْعَةِ هَذَا المَنْظَرِ العَجِيبِ ؛ فَقَالَ لَهُ : اُسْكُتْ ؛ فَوَاللهِ إِنَّ هَذِهِ القِطْعَةِ طِرَازُ هَذَا المَنْظَرِ وَفَخْرُهُ ، وَكَانَ المُعْتَصِمُ إِذَا نَظَرَ إِلَيهَا قَالَ : أَشَعَرْتُمْ أَنَّ هَذَا المَكَانَ المُعْوَجَّ فِي عَينِي أَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ مَا اسْتَقَامَ مِنَ الصُّمَادِحِيَّةِ ؟ ثُمَّ إِنَّ وَزِيرَهُ ابْنَ أَرْقَمٍ لَمْ يَزَلْ يُلاطِفُ الشَّيخَ وَالأَيتَامَ حَتَّى بَاعُوهَا عَنْ رِضًى بِمَا اشْتَهَوا مِنَ الثَّمَنِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلة ؛ فَاسْتَقَامَ

---

(39) سلمى الخضراء الجيوسي : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفن والعمارة – التاريخ الاجتماعي – التاريخ الاقتصادي – الدراسات الدينية – العلم والتكنولوجيا والزراعة) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998م ، 2/ 872 .

(40) سورة ص : الآية 23 .

بِهَا بِنَاءُ الصُّمَادِحِيَّةِ ، وَحَصَلَ لِلمُعْتَصِمِ حُسْنُ السُّمْعَةِ فِي النَّاسِ ، وَالجَزَاءُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى » [41] .

عندما تأكد المُعْتَصِم بْن صُمَادِح أنَّ قطعة الأرض التي سَيُكْمِلُ بها قصره مِلْكٌ لأيتام تركها لهم إرضاءً لله ، وأتمَّ بناء قصره حتى أصبح كالجَنَّة الجميلة ، التي يَقْصُهَا في عين الناظر تلك الأرض ، ولكنَّ ابن أرقم (ت نحو 485 هـ) وزير المعتصم ألحَّ على صاحبها حتى اشتراها منه ، وأتمَّ المعتصمُ بناءَه .

ومن قصور المَرِيَّة التي بناها المُعْتَصِم بْن صُمَادِح : « **القصر الكبير** المُتَطَلِّع مِنْ جَوفَيهِ إلى جَبَل لَيْهَم ، وفي قَبْلَيه بُسْتَان عَظِيم جِدًّا ، فِيهِ مِنْ جميع الثمار وغريبها ما لا يَقْدِرُ وَاصِفٌ عَلَى أَنْ يَصِفَهُ ، مَعَ طُولِ مِسَاحَتِهِ قُرْب عَرْض القَصَبَة ، وَيَلِيهِ فِي قِبْلَتِهِ مَجْلِس عَظِيم مُقَرْنَس بِالرُّفُوفِ المُزَوَّقَة المَنْقُوشَة ، المَنْزُول فِيهَا الذَّهَب الطَّيِّب مَفْرُوش بِالرُّخَام الأَبْيَض ، وَقَدْ أزر بِالرُّخَامِ المَنْقُوش ... المُنَزَّلُ بِغَرَائِبِ الإِنْزَالِ ... وَيَلِيهِ صَحْن قَبْلَيهِ أَبْوَاب عَلَيهَا شَرَاجِب يَطْلُعُ مِنْهَا – إِنْ أَحَبَّ – إِلَى جَمِيعِ مَدِينَةِ المَرِيَّة وَإِلَى بَحْرِهَا وَإِقْبَالِ السُّفُنِ إِلَى مَرْسَاهَا وَخُرُوجِهَا مِنْهُ إِلَى العُدْوَة وَسَائِرِ البِلادِ ، وَبَنَى شَرْقَهَا دَارًا للحُكْم فِيهِ » [42] .

ذلك القصر به بُسْتَان غريب الوصف لِمَا بِهِ مِنْ ثِمَارٍ لا يُوْصَف جَمَالُهَا ، ولقد زُيِّنَتْ حوائط مَجْلِسِهِ بِالرُّخَامِ الأبيض ، وللقصر أبوابٌ يَخْرُجُ منها إلى مدينة المَرِيَّة ، وفي شرق القصر دارٌ لِلحُكْم .

هـ) قُصُورُ فِتْيَانِ بَنِي عَامِر :

شَيَّدَ **مُظَفَّر ومُبَارك العَامِرِيين** قصر **الإمارة** فِي بَلَنْسِيَة ؛ ليكونَ مَقَرًّا لِلحُكْمِ ، وشُغِفُوا بتزيين القصور ، التي تتجلى فيها ملامح العظمة والأُبَّهة ، مُحَاكِينَ في ذلك أعظم الأمراء ، يقول ابن بَسَّام في (الذخيرة) على لسان **ابن حَيَّان القُرْطُبِيّ** (ت469هـ) : « سَلَكَ مُبَارَك وَمُظَفَّر سَبِيلَ المُلُوكِ الجَبَّارِينَ فِي إِشَادَةِ البِنَاءِ وَالقُصُورِ ، وَالتَّنَاهِي فِي عَلِيَّاتِ الأُمُورِ ، إِلَى أَبْعَدِ الغَايَاتِ ، وَمُنْتَهَى النِّهَايَاتِ ، بِمَا أَبْقَيَا شَأْنَهُمَا حَدِيثًا لِمَنْ

---

(41) المقَّرِيّ : نَفْح الطِّيب ، 367/3 .

(42) العُذْرِيّ : نصوص عن الأندلس ؛ من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1965م ، ص 85 .

بَعْدَهُمَا ، وَاشْتَمَلَ هَذَا الرَّأْيُ أَيضًا عَلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِمَا ، وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِمَا مِنْ وُزَرَائِهِمَا وَكُتَّابِهِمَا ؛ فَاحْتَذَوا فِعْلَهُمَا فِي تَفْخِيمِ البِنَاءِ ؛ فَهَامُوا مِنْهُ فِي تُرَّهَاتٍ مُضِلَّةٍ ، وَتَسَكَّعُوا فِي أَشْغَالٍ مُتَّصِلَة ، لاهِينَ عَمَّا كَانَ يَوْمَئِذٍ فِيهِ الأُمَّة ، كَأَنَّهُمْ مِنَ اللهِ عَلَى عَهْدٍ لا يُخْلِفُهُ ، وَاتَّسَعَ الحَدْسُ فِي عِظَمِ ذَلِكَ الإِنْفَاقُ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قُدِّرَتْ نَفَقَتُهُ عَلَى مَنْزِلِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَقَلَّ مِنْهَا وَفَوقَهَا ، حَسَبُ تَنَاهِيهِمْ فِي سَرْوِهَا : مِنْ نُضَارِ الخَشَبِ وَرَفِيعِ العُمَدِ وَنَفِيسِ المَرْمَرِ ، مَجْلُوبًا مِنْ مَظَانِّهِ ، وَجَلَبَ إِلَيهِمْ سَنِيَّ الفُرُشِ مِنْ سَائِرِ الحُلِيِّ وَالحُلَلِ ؛ فَنَفَقَ سُوقُ المَتَاعِ بِعَفْوَتِهِمْ ، وَبُعْثِرَ عَنْ ذَخَائِرِ الأَمْلاكِ لِقَصْرِهِمْ ، وَضَرَبَ تُجَّارُهَا أَوْجُهَ الرُّكَّابِ نَحْوَهُمْ ؛ حَتَّى بَلَغُوا مِنْ ذَلِكَ البُغْيَةَ وَفَوقَ مِلْءِ فُؤَادِ الأُمْنِيَةِ ؛ فَمَا شِئْتَ مِنْ طِرْفٍ رَائِعٍ ، وَمَرْكَبٍ ثَقِيلٍ ، وَمَلْبَسٍ رَفِيعٍ جَلِيلٍ ، وَخَادِمٍ نَبِيلٍ ، وَآلاتٍ مُتَشَاكِلَة ، وَأُمُورٍ مُتَقَابِلَة ، تَرُوقُ النَّاظِرِينَ ، وَتَغِيظُ الحَاسِدِينَ » [43] .

من مظاهر الترف إنفاق الملوك مبالغ باهظة في بناء هذه القصور ؛ بغرض التفاخر ، ولإظهار مدى قُوَّتِهِمْ ؛ لإِرْهَابِ عَدُوِّهِمْ ، وإثارةِ غَيظِهِ ؛ فقد حَذَا مُبَارك ومُظَفَّر حَذْو مَنْ سبَقَهم من الملوك الجبَّارين ذوي الأبنية الفخمة العظيمة ، وذلك ليس بغريب فهي الصفة الغالبة على ملوك الطوائف ، ولم يقتصر الأمر على الملوك وأصحابهم فقط ، بل تعدى ذلك إلى الوزراء أيضًا ؛ فقد ارتفَعت نفقاتهم على منازلهم ؛ حتى وصلت إلى مائة ألف دينار فما فوقها ، وذلك بسبب المواد المستخدمة في تزيين البناء ؛ لِيَخْرُجَ فِي أَبْهَى حُلَّة ، ويُبْهِرُ النَّاظِرِينَ .

– **قَصْرُ القَصَبَةِ بِالمَرِيَّةِ :**

بنى **خَيرَانُ العَامِرِيّ الصَّقْلَبِيّ** (ت419هـ) ، الذي وَلاهُ المنصورُ بن أبي عامر (ت392هـ) المَرِيَّة ، قَصْرَ **القَصَبَةِ** داخل القصبة التي أَسَّسَهَا ؛ بحيث تُشرف على المَرِيَّة والبحر المُتَوَسِّط من الجِهَة الجَنُوبِيَّة ، والقصرُ جُدْرَانُهُ سميكة مَبْنِيَّة من المِلاط [44] ، والآجُرّ ، وقطع الحجارة ، واُسْتُخْدِمَ فِي تزيينه الألوان التي تبعث البهجة والسرور والصفاء والراحة ، ومنها : الأحمر المائل إلى الصُّفْرَة ، وكأنه لون الشفق ساعة

(43) ابن بَسَّام : الذَّخِيرَة ، 3/1/17– 18 .

(44) المِلاط : مادة بناء مكونة من التراب المخلوط بالكِلْس ، وتتسم بالصلابة الشديدة .

الغروب ، وكان حَمَّامُ ذلك القصر مُكَوَّنًا من خمس غرف متوازية ، وفيه قَبَوَات أُسْطُوَانِيَّة يجري فيها الماء [45] .

- قُصُورُ شَاطِبَة (Jativa) :

حكم **مُبَارَك العَامِرِيّ** (ت408هـ) شَاطِبَة ، وبَنَى فيها القُصُورَ الفَاخِرَة ، وفرشها بأجمل الأثاث ، وزخرفها بزخارف بديعة [46] .

القصور التي بُنيت في عصر ملوك الطوائف لم يُبْنَ مثلها ولمْ يُرَ شبيهها ؛ حيثُ تَفَنَّنَ كُلُّ مَلِكٍ في تشييد قصره ؛ لِيُصْبِحَ تُحْفَةً جماليَّة لا مثيلَ لها .

القُصُورُ فِي عَصْرِ المُرَابِطِينَ :

وَرِثَ المرابطونَ مُلْك المَغْرب والأندلس ، « وبَنَوا عاصمتهم الجديدة على باب الصحراء وسَمُّوهَا (مَرَّاكش) ، وهكذا تأسست هذه الدولة أولاً في المَغْرِب ، وانتقلت إلى إسبانيا ؛ فَعَمَّتْ الصلات الثقافيَّة أقصى البلاد المغربيَّة ، وأطراف البلاد الأندلسيَّة » [47] .

وفي سنة 454هـ « نزل السلطان يوسف بن تاشفين محلَّ مرّاكش ، واختط قَصْرُهُ ومَسْجِدُهُ ، واشتغل بالبناء ... وبقرب مرَّاكش من جبال المصامدة وصحراء لَمْتُونَة كان كرسي مملكته » [48] .

وقد شَهِدَتْ بلادُ المَغْرِبِ في عهد يوسف بن تاشفين ، وأوائل عهد عليّ ابنه « أمنًا وطمأنينة واستقرارًا رُبَّمَا لَمْ تَشْهَدْهُ فِي أيّ عَصْرٍ سابق ، وانتشرت الآثارُ الفنيَّةُ في مُدُن المغرب الأقصى ، ولكن الحاضرة كانت أشد تألقًا في سَمَاءِ الفَنّ ؛ بسبب بلاط السُّلْطَان ، وأُبَّهَته وفخامته ؛ وبسبب تنافس الأمراء والقُوَّاد والعُمَّال ورجال الدولة ؛

---

(45) جمانة محمد عزمي زلوم : القصور في الشعر الأندلسي ، ص 17 .

(46) انظر : ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وإ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1418هـ - 1998م ، 160/3 - 161 .

(47) الحسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص190.

(48) عبد الكبير بن هاشم الكِتَّاني : زَهْر الآس فِي بيُوتات أَهْل فَاس ، ويليه (تحفة الأكياس ومفاكهة الجُلاَّس فيما غفل عنه صاحب زهر الآس في بيوتات أهل فاس) لمحمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني (ت1326هـ) ، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني ، منشورات مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 1422هـ - 2002م ، ص 237 .

فحفلت بالعمائر المَدَنِيَّة والدِّينِيَّة ، كما أصبحت مدينة فَاس (Fez) من أهم مراكز الفن في المغرب في عهد المرابطين » [49] .

وفي عهد عليّ بن يُوسُف (ت537هـ) « أصبحت مُؤَسَّسَات فَاس ومَرَّاكُش (Marrakech) وتِلِمْسَان (Tlemcen) تكاد تُضارع مؤسسات قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة ، وكان الفن في عهد المُرَابِطِينَ فن أندلسيّ في أرض مغربيَّة » [50] .

وقد اهتم المُرَابِطُونَ بِبِنَاءِ قُصُورِهِمْ ، واستخدموا في ذلك صخورًا مرصوصة قَوِيَّة ، إضافةً إلى الجِصّ والآجُر والجبس وغيرها من المواد الغالية ، وتركوا « آثارًا عُمْرَانِيَّة شاهدة على ما بذلوه من جُهْدٍ ؛ إذ استخدموا الصخر المرصوص الكبير في بنائهم ؛ ليظل بناؤهم قويًّا يقاوم الانهيار ، ومن آثارهم : (قصر الأُمَّة) بِمَرَّاكُش ... و(قاعة السُّفَرَاء) بقُرْطُبَة ، و(دار الحَجَر) ... و(قصر تاكررت) ، وجزء من (حصن الودايا) » [51] .

أ) قَصْرُ مُنْتِقُوط :

يتمثل التخطيط الجديد لأبهاء القصور في عهد المرابطين في قصر مُنْتِقُوط (Monteagudo) ، الذي « أُكْتُشِفَتْ بَقَايَاهُ في سهل مُرْسِيَة ، على بُعْد نَحْو أربعة كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من هذه المدينة ، ويتوسط القصر بهو مستطيل الشكل يَطُلُّ على جانبيه القصيرين جَوْسَقَانِ مُرَبَّعَانِ بَارِزَانِ ، يُمَهِّدَانِ لجوسقيّ بهو السباع في قصر الحمراء بغَرْنَاطَة ، ويتعامد ممرانِ يؤلفانِ محوريّ البناء فيما بينهما على شكل صليب ، وتمتلئُ المستطيلاتُ الأربعةُ الناشئة عن هذا التعامُد بأشجار البرتقال والليمون» [52] .

نتبين مما سبق كثرة قصور ملوك الطوائف وشهرتها ؛ فقد قامت الفلسفة الفكريَّة لدولة ملوك الطوائف على المنافسة – بين ملوكها – في بناء القصور وزخرفتها ، وذلك لحياة البذخ والترف التي عاشها هؤلاء الملوك .

---

(49) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ؛ صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د . ت ، ص450 .

(50) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(51) الحسن السائح : الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص191.

(52) السيد عبد العزيز سالم : العِمَارة الإِسْلامِيَّة في الأندلس وتطورها ، ص101 – 102 .

وكانت الأفنية في قصور ملوك الطوائف تتوسطها بِرْكَة ، وتَعْلُوها قُبَّة ، وبجوارها تماثيل تُزَخْرَف بِالذهب ، وتَمُجُّ الماءَ من أفواهها ، ونجد القاعات الواسعة ، والحمامات العظيمة ، والحدائق التي تُلْحَقُ بِالقُصُور ، والمجالسَ الفَخْمة ، والألوان الزاهية ، والنقوش الكتابية التي تتضمن شعر المدح ، والرقوم الهندسيَّة ، والزخرفة الذهبيَّة ؛ مِمَّا يَنُمُّ على إسراف ملوك الطوائف في استكمال سُبُل المتعة .

ب) قَصْر الحِجْر :

في سنة 462هـ « أُبْتُدِئ بِأساس مَرَّاكُش ، وذلك قَصْر الحِجْر ، وشرع الناس في بناء الدور دون سُور ، وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر بن عمر وإخوته وجميع مَحِلَّتِهِ مع أشياخ المصامدة والفعلة من البَنَّائِين وغيرهم ؛ فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة الأشياخ وحسب عونهم ؛ فأعانوا على البناء بالمال والرجال ؛ فقام سُور قَصر الحِجْر في نحو ثلاثة أشهر » [53] .

وهذا يدل على اتساع قصر الحِجْر ؛ فقد استغرق بناء سُوره نحو ثلاثة أشهر ، وساعد الشيوخ على بنائه بالمال والرجال .

وقد أثبتت الحفريات الأثرية « أن أعمال عليّ بن يوسف في قصر الحِجر المجاور لجامع الكتبية مستوحاة من الفن الأندلسي ... فقد كُشِفَ عَنْ بَهْوٍ لَهُ مَمَرَّانِ مُتَعَامِدَانِ على النحو الذي نراه في قصر مُنْتِقُوط بمُرْسِيَة ، وقد اُسْتُخْدِمَ فِي البِنَاء الطابية والآجُرّ ، وكُسِيَ البِنَاءُ بطبقة من الجِصّ مَدْهُونة باللون الأحمر والأصفر ، وهي طريقة كانت شائعة في البناء في الأندلس في القرن الرابع الهجري » [54] .

ج) قَصْر تَاشفين بْن عَلِيّ :

وفي عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة ، صَارَ الأميرُ تاشفين بن علي بن يوسف واليًا على غَرْنَاطَة ؛ « فَقَوَّى الحُصُونَ ، وَسَدَّ الثُّغُورَ ، وَأَذْكَى العُيُونَ ، وَعَمَدَ إِلَى رَحْبَةِ القَصْرِ؛ فَأَقَامَ بِهَا السَّقَائِفَ وَالبُيُوتَ ، وَاتَّخَذَهَا لِخَزْنِ السِّلاحِ ، وَمَقَاعِدِ الرِّجَالِ ، وَضَرْبِ السِّهَامِ ، وَأَنْشَأَ السُّقْيَ ، وَعَمِلَ التِّرَاسَ ، وَنَسَجَ الدُّرُوعَ ، وَصَقَلَ البَيضَاتِ وَالسُّيُوفَ ، وَارْتَبَطَ الخَيلَ ، وَأَقَامَ المَسَاجِدَ فِي الثُّغُورِ ، وَبَنَى لِنَفْسِهِ مَسْجِدًا بِالقَصْرِ ، وَوَاصَلَ

---

(53) ابن عِذَارِي : البَيَان المُغْرِب ، 20/4 .

(54) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1982م ، ص677.

الجُلُوسَ لِلنَّظَرِ فِي الظُّلامَاتِ ، وَقِرَاءَةِ الرِّقَاعِ ، وَرَدِّ الجَوَابِ ، وَكتب التَّوقِيعَات ، وَأَكْرَمَ الفُقَهَاءَ وَالطَّلَبَةَ ، وَكَانَ لَهُ يومٌ فِي كُلِّ جُمْعَة ، يَتَفَرَّغُ فِيهِ لِلمُنَاظَرَةِ » [55] .

جعل الأميرُ تاشفين بن عليّ بن يوسف القصرَ مُؤَسَّسَةً جامعة ، تَضُمُّ مسجدًا ، ومخزنًا للسلاح ، ومربطًا للخيول ، ومجلسًا للنظر في المظالم .

نلاحظ نُدْرَة قُصُور المرابطين ، الذينَ ارتبطت فلسفتهم بالدِّين ؛ لذلك نجدُ بناءهم للمساجد أكثر مقارنةً بملوك الطوائف .

الخاتمة :

نتبين مما سبق كثرة قصور ملوك الطوائف وشهرتها ؛ فقد قامت الفلسفة الفكريَّة لدولة ملوك الطوائف على المنافسة – بين ملوكها – في بناء القصور وزخرفتها ، وذلك لحياة البذخ والترف التي عاشها هؤلاء الملوك .

وكانت الأفنية في قصور ملوك الطوائف تتوسطها بِرْكَة ، وتَعْلُوها قُبَّة وبجوارها تماثيل تُزَخْرَف بِالذهب ، وتَمُجُّ الماءَ من أفواهها ، ونجد القاعات الواسعة ، والحمامات العظيمة ، والحدائق التي تُلْحَقُ بِالقُصُور ، والمجالسَ الفَخْمة ، والألوان الزاهية ، والنقوش الكتابية ، والرقوم الهندسية ، والزخرفة الذهبية ؛ مِمَّا يَنُمُّ على بذخ ملوك الطوائف في استكمال سُبُل المتعة .

ونلاحظ نُدْرَة قُصُور المرابطين ، الذينَ ارتبطت فلسفتهم بالدِّين والجهاد ؛ لذلك نجدُ بناءهم للمساجد أكثر مقارنةً بملوك الطوائف الذين كَثُرَتْ قصورهم .

---

(55) ابن الخَطِيب : الإِحَاطَة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ – 2003م ، 250/1 .

المصادر والمراجع

أولا : المَصَادِر :

*** ابن بَسَّام الشَّنْتَرِينيّ – أبو الحسن عليّ (ت542هـ) :**

1- الذَّخِيرَة في محاسن أهل الجَزِيرَة ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1399هـ - 1979م .

*** ابن خَاقَان – أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسيّ الإشبيليّ (ت535هـ) :**

2- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، حَقَّقَهُ وعَلَّق عليه حسين يُوسُف خريُوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط1 ، 1409هـ - 1989م .

*** ابن الخَطِيب – لِسَان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت776هـ) :**

3- الإحَاطَة فِي أَخْبَار غَرْنَاطَة ، شرحه وضبطه وقَدَّمَ له يوسف علي طويل ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1424هـ - 2003م .

*** ابن خَلْدُون – أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ) :**

4- تاريخ ابن خلدون المُسَمَّى (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ - 2000م .

*** ابن الدلائي – أحمد بن عُمَر بن أَنَس العُذْرِيّ (ت478هـ) :**

5- نصوص عن الأندلس ؛ من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1965م .

*** ابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيّ – أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد 712هـ) :**

6- البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وإ. ليڤي پروڤنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط5 ، 1418هـ- 1998م .

*** الحِمْيَرِيّ – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت في أواخر القرن التاسع الهجري):**

7- الرَّوض المِعْطَار فِي خَبَرِ الأَقْطَارِ ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر الثقافية ، بيروت ، ط2 ، 1980م .

*** عبد الكبير بن هاشم الكِتَّاني (ت1350هـ) :**

8- زَهْر الآس فِي بيُوتات أَهْل فَاس ، ويليه (تحفة الأكياس ومفاكهة الجُلاَّس فيما غفل عنه صاحب زهر الآس في بيوتات أهل فاس) لمحمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني (ت1326هـ) ، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني ، منشورات مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 1422هـ - 2002م .

*** مؤلف أندلسي من القرن الثامن الهجري :**

9- الحُلَل المَوشِيَّة فِي ذِكْرِ الأَخْبَارِ المَرَّاكِشِيَّة ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1399هـ - 1979م .

*** المعتمد بن عباد – أبو القاسم محمد بن عباد (ت488هـ) :**

10- ديوان المعتمد بن عباد ؛ ملك إشبيلية ، تحقيق حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط4 ، 1423هـ- 2002م .

*** المقَّرِيّ التِّلِمْسَانِيّ – أبو العباس أحمد بن محمد (ت1041هـ) :**

11- نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ- 1988م .

ثانيًا : المَرَاجِعُ العَرَبِيَّة :

*** حسن أحمد محمود :**

12- قيام دولة المرابطين ؛ صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د . ت .

*** الحسن السائح :**

13- الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط2 ، 1406هـ - 1986م .

*** حسين مؤنس :**

14- الحضارة ؛ دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعرفة (237) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط 2 ، سبتمبر 1998م .

*** السيد عبد العزيز سالم :**

15- المساجد والقصور في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1986م

16- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1982م .

*** سلمى الخضراء الجيوسي :**

17- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفن والعمارة - التاريخ الاجتماعي - التاريخ الاقتصادي - الدراسات الدينية - العلم والتكنولوجيا والزراعة) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1998م .

*** محمد عبد الله عنان :**

18- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ؛ دراسة تاريخية أثرية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1417هـ - 1997م .

*** نَصْر مُحَمَّد عَارِف :**

19- الحَضَارة ، الثَّقَافَة ، المَدَنِيَّة ؛ دِرَاسَة لِسِيرَة المُصْطَلَح وَدَلالَةِ المَفْهُوم ، سلسلة المفاهيم والمصطلحات (1) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، عمان ، ط2 ، 1415هـ - 1994م .

ثالثًا : المَرَاجِعُ الأَجْنَبِيَّة المُتَرْجَمَة :

*** بيريس ، هنري :**

20- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ؛ ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط1 ، 1408هـ - 1988م.

*** ديورَانت ، وِل دَايريل :**

21- قصة الحضارة ؛ نشأة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين ، دار الجيل ، بيروت ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ط4 ، 1988م .

*** مالدونادو ، باسيليون بابون :**

22- العمارة الإسلامية في الأندلس ؛ عمارة القصور ؛ القرن العاشر والحادي عشر ، عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف ، ترجمة علي إبراهيم المنوفي ، مراجعة محمد حمزة الحداد ، المشروع القومي للترجمة ، العدد (1515) ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط1 ، 2010م .

رَابِعًا : الدَّورِيَّات :

*** السيد عبد العزيز سالم :**

23- العِمَارة الإسْلامِيَّة في الأندلس وتطورها ، مجلة عالم الفكر ، عدد خاص بعنوان (دراسات في التراث) ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد الثامن ، العدد الأول ، إبريل – مايو – يونيو 1977م .

24- قصور إشبيلية في العصر الإسلامي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، المجلد الخامس عشر ، العدد الثالث ، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر 1984م .

خَامِسًا : الرسائل الجامعية :

*** جمانة محمد عزمي زلوم :**

25- القصور في الشعر الأندلسي ؛ عصر ملوك الطوائف ، رسالة ماجستير ، عمادة الدراسات العليا ، جامعة الخليل ، فلسطين ، 1433هـ -2011م .